المدرسة البنيوية وتحليل الخطاب السردي (مقاربة ابستيمولوجية)

أ . شمس الدين شرفي*

تقديم

ينهض مشروع التواصل عند الكائن البشري على السعي إلى معرفة الذات في سياق تفاعلها مع الأحياء والأشياء ، أو من خلال تعاملها مع الأفكار والأغيار . وعليه فإن فعل الكتابة يغدو ردما لهوة الانفصال ، وتجاوزا لحالة الافتقار الحائلة دون تحقيق الكينونة ، واستمرار الوجود ، في حدود إثبات الذات ، وتجاوز عوائق الحياة . ولعل هذه الغاية هي السر الذي من أجله اخترعت الكتابة ، كأهم انجاز بشري ، تتجلى من خلاله صورة الكائن الشخصية ، وإنجازاته الاجتماعية ، وحياته العقلية ، ومنطلقاته الروحية .

وقد لا يكون بعيدا عن الصواب أن يقال إن أقدم إنجاز نصي عرفته البشرية إنما يكمن في تلك الأشكال السردية ، التي دلت على وجودها شواهد من بقايا الحضارات القديمة . وتكمن أهمية هذه النصوص في تنوعها ، وخصوبتها ، وغناها بالمضامين الرمزية الدالة على قوة تفاعل الكائن البشري ، مع الحوادث والكائنات من حوله ، سعيا منه إلى رصد حركة الحياة وإثبات معنى الوجود . وما فتئت الكتابة السردية على هذا الوجه تحتل حيزا خاصا في المخيال البشري ، وتقتنص لنفسها مساحة من الحضور الطاغي في وعيه ووجدانه .

لكن الكتابة عامة والسرد بصفة خاصة يظلان مشدودين إلى أنساق فكرية ونظم لغوية ، وأشكال تعبيرية ، شديدة التباين قوية الاختلاف ، من زمن إلى زمن ، ومن شعب إلى آخر ، ومن لغة إلى نظيرتها . وعلية فإن المقاربة النقدية للأشكال السردية عامة ، والرواية بشكل خاص ، تظل محفوفة بمزالق عديدة ، قد يقع ضحيتها البحث غير المتبصر بخصوصياتها الإقليمية والقومية واللغوية والإيديولوجية والاجتماعية ، ولم يكن البحث في مجال السرديات لينأى عن هذا التحول الحاصل في ضوء المنهج البنيوي .

ومنذ العقود الأولى في القرن العشرين ، عمد الباحثون والمنظرون إلى الإفادة من المنجزات الألسنية ، واستلهام النموذج البنيوي في تحليل الخطاب

* معهد الآدب العربي ، المركز الجامعي عباس لغرور خنشلة .

السردي ، تحليلا يهدف إلى كشف مباني النص السردي ، ويسعى إلى استكناه أنظمته الحكائية ، متجاوزا كل تفسير لا ينبثق من صميم النص ، ولا يسعنا في بداية هذا المبحث إلا أن نفحص الأصول المعرفية ، والمباني الفلسفية التي ينهض عليها المنهج البنيوي حتى نكشف عن الصلات الوثيقة بين مناهج تحليل الخطاب السردي وبين الفكر البنيوي بعامة .

ا. البنيوية : دلالاتها اللغوية وأبعادها المعرفية

أ . الجذور اللغوية لكلمة البنية :

يرجع أصل كلمة البنية « structure » إلى الفعل اللاتيني « struere » الذي يدل على معنى البناء ووالعمارة والكيفية التي يتم بها بناء ما [1]. وقد استخدم هذا المصطلح في فن العمارة منذ القرن السابع عشر[2].

وقد أوردت بعض الموسوعات الفرنسية صيغا تعريفية متنوعة ، لكنها تؤول إلى مضمون مكرر غالبا ، فقد جاء في موسوعة يونيفرساليس (Universalis - 2004) ما يعني أن البنية هي الكيفية التي تنتظم بها الأشياء ـ مجردة أو محسوسة ـ لتشكل كُلاً [3].

وغير بعيد منه ما ورد في موسوعة آشيت (Hachette - 2005) بالقول إن البنية هي انتظام متوازن لعناصر شيء حسي ، أو أثر فني ، أو هي الكيفية التي تتماسك من خلالها الأجزاء المشكلة لكل مركب [4].

فالناظر في كلا التعريفين سرعان ما يدرك أنهما يصدران عن تصور واحد ، حتى وإن اختلفت العبارات المؤدية للمعنى . *

وفي اللغة العربية نجد الفعل بنى في تنويعاته الصرفية والزمنية المختلفة ، ومصدره بناء ، وفي في النحو القديم مباحث خاصة بالإعراب والبناء .

وفي لسان العرب : « والبِنْيَةُ والبُنْيَةُ : ما بَنَيْتَهُ ، وهو البِنَى والبُنَى؛ وأَنشد

(1) عمر مهيبل : البنيوية في الفكر المعاصر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط2 ، 1993 ، ص 16

(2) الزواوي بغورة : المنهج البنيوي ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، ط1 ، 2001 ، ص68 .

(3) Voir : structure , Encyclopædia Universalis ,10éme ed 2004, dvd rom ..

(4) Voir : structure, Encyclopédie Hachette Multimédia ـ Version 9,2005 cd rom

* ـ النص الأصلي في موسوعة يونيفرساليس هو :

« manière dont des choses (abstraites ou concrètes) sont organisées pour former un ensemble » .

أما تعريف آشيت فقد ورد بالصيغة التالية :

« Agencement équilibré des parties d'une chose concrète , d'une œuvre; manière cohérente dont sont organisées les parties constitutives d'un complexe ensemble . »

الفارسي عن أَبي الحسن :

أُولئك قومٌ ، إن بَنَوْا أَحْسَنُوا البُنى ، وإن عاهَدُوا أَوْفَوْا ، وإن عَقَدُوا شَدُّوا التي بُنِيَ عليها مثل المِشْيَة والرِّكْبةِ . . .» (1).

ويذهب الزواوي بغورة إلى أن كلمة «بنية» لم ترد في النصوص القديمة ، (2) مع أن استعمالها قد تردد في نصوص تراثية عدة ، بمعان متباينة ، منها ما يتصل بالبنية الصرفية للألفاظ ، ومنها ما يحيل على بينة النص الشعري . وممن استعملها قدامة بن جعفر في «نقد الشعر» ، والتستري في «المذكر والمؤنث» ، وعبد القاهر في «أسرار البلاغة» ، وابن قتيبة في «أدب الكاتب» ، وأبو حيان في «الهوامل والشوامل» ، وابن رشيق في «العمدة» ، وابن فارس في «الصاحبي في فقه اللغة» ، وابن حزم «في طوق الحمامة» (3).

إلا أن مفهوم البنية عندهم أبعد ما يكون عن التجريد الفلسفي المعاصر ، ومقصور على النظر البحت في المكونات الشكلية للشعر كالتقفية والوزن والروي ، أوفي الوحدات اللغوية التي تتكون منها الألفاظ ، لا أكثر . وهذا التوظيف يجعل فهم العرب القدامى للبنية قريبا نسبيا من فهم المدرسة الشكلانية .

ب. القيمة العلمية لمصطلح البنية :

ما فتئ مفهوم البنية يثير كثيرا من التساؤل والاستفهام نظرا لما يحيط به من غموض وجدل ، فضلا عن تنوع القراءات التي يفرضها استخدامه ، والمناهج التي يستدعيها توظيفه في مختلف فروع المعرفة الإنسانية . ذلك أن الإشكالات التي يطرحها هي في مجملها ذات طابع نظري ، مما يقتضي فحص ظروف نشأته ، وقراءة السياقات التي برز فيها تيار البنيوية ، كأحد أبرز الاتجاهات الفكرية التي كرست مبدأ القطيعة المعرفية ضد المفاهيم النظرية والمناهج العلمية ، التي كانت سيدة القرن التاسع عشر بلا منازع .

وقد شهد القرن الماضي تحولات شتى في مسار الفكر الغربي عامة ، والعلوم الإنسانية خاصة ، نجد آثارها قوية واضحة منذ الأعمال والكتابات التأسيسية الأولى لكل من سوسير ، وشتراوس ولاكان وفوكو وبارث . ومنذ بدايتها اتجهت البنيوية في ابتداع أسسها المفهومية ، واستحداث أدواتها المنهجية على

(1) ابن منظور : لسان العرب ، دار صادر ودار بيروت ، 1968 ، مج 14 ، ص 94 ..

(2) الزواوي بغورة وآخرون : مدخل جديد إلى فلسفة العلوم ، مطبوعات جامعة منتوري ، قسنطينة ، د ط ت ، ص 193 .

(3) انظر : كلمة «بنية» ، الموسوعة الشعرية ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، الإصدار الثالث ، قرص مدمج

أساس القطيعة المعرفية مع الماضي . وقد تمظهرت في رفض منطق الجدل ، وتجاوز النزعة المثالية ، والثورة على هيمنة المنهج التاريخي ، واستبعاد السياقات الخارجية في تفسير الظواهر الإنسانية واللغوية والأدبية؛ فقد كانت ـ بوجه عام ـ توجها نحو حوسبة العلوم الإنسانية .

لهذه الأسباب نجد مفهوم البينة متشعبا ، وغير قار ، نظرا للتداخل الحاصل في توظيفه واستخدام أدواته الإجرائية والمنهجية . فقد كان للاتجاه البنيوي انتشار واسع في حقول العلوم الإنسانية ، كاللسانيات ، والأنثروبولوجيا ، وعلم النفس ، ونظرية المعرفة ، والتاريخ ، والنقد الأدبي . لهذا لا يطمح البحث إلى الإحاطة الشاملة بالبنيوية ، بل إن غرضه هو إجراء مسح سريع لنشأة مصطلح البنية وانتقاله عبر العلوم الإنسانية المختلفة .

ج . الأبعاد الفلسفية لمصطلح البنية :

اكتسب مصطلح البنية بعده الفلسفي وصبغته التجريدية بعد سعي العلوم المعاصرة إلى تجاوز المناهج التقليدية ، وإعادة بلورة أطرها النظرية على أساس من الضبط والدقة في دراسة وتناول الظواهر المختلفة ، وبهذا الصدد يقول ريمون بودون « Raymond Boudon » « مفهوم البنية هو أحد المفاهيم التي يمكن أن تكون علومية »[1]. وهي عبارة ذات دلالة معرفية بالدرجة الأولى ، فقد اندرج مفهوم البنية اليوم في صلب نظرية المعرفة بسبب تعدد القضايا المنهجية والإشكاليات النظرية التي يثيرها في مختلف الفروع؛ الشيء الذي دفع عالما كبيرا ، ومنظرا ابستمولوجيا ، هو جان بياجيه « Jean Piaget » إلى أن يخصص للبنيوية كتابا كاملا [2]. وعلى الرغم من خوض الكثير من المنظرين في هذا الموضوع ، إلا أن كتاب بياجه يبقى أساسيا في تحديد هوية البنية إن جاز التعبير . *

ومع هذا فإن مقاربة هذا المصطلح تبقى عديمة الجدوى ما لم يفطن الباحث إلى التداخل الحاصل بينه وبين مفاهيم ذات أصول رياضية أو فلسفية ، كالنسق ، والشكل ، والنموذج ، والزمرة . وقد انتبه ريمون بودون إلى العلاقة الوثيقة بين هذه المفاهيم في مقاله » البنية في العلوم الإنسانية » حين أشار إليها

(1) ريمون بودون : موضع الفوضى ، ترجمة منصور القاضي ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت، ط1 ، 1999 ص 111 .

(2) جان بياجيه : البنيوية ، تر : عارف منيمنة وبشير أوبري ، منشورات عويدات ، بيروت ـ باريس ، ط4 ، 1975 .

* تجدر الإشارة هنا إلى أعمال كل من ريمون بودون ، وجيل دولوز ، وتودوروف وجان ماري أوزياس ، وروبرت شولز ، وإديث كيرزويل ، وجوناتان كولر .

بقوله :

« Cette notion est unie à la notion de système, elle-même corrélative de celle de modèle »

كما يقول أيضا :

« l'analyse structurale n'est finalement pas autre chose qu'une analyse des systèmes » (1)

وقد غزت هذه المفاهيم سائر الممارسات التنظيرية في العلوم المعاصرة ، وعمدت بعض العلوم الإنسانية كاللسانيات ، والأنثروبولوجيا ، والنقد الأدبي إلى استعارتها وتوظفيها وفق ما تقتضيه مناهجها وآلياتها الإجرائية .

ويرى بياجيه أن البنية هي نسق من التحويلات له قوانينه الخاصة كمجموعة ، ومن شأن هذا النسق أن يكتفي بمجموع العلاقات التي تضبط عناصره الداخلية مع استغنائه عن العناصر الخارجية (2).

وهذا التعريف على قلة وضوحه وإسرافه في التجريد يحيل بشكل أولي إلى فكرة القوانين الداخلية التي ينتظم بها أو من خلالها المجموع أو الكل . وبإيجاز فالبنية تتألف من ثلاث خصائص هي : الكلية(totalité) ، والتحويلات (transformations) ، والتنظيم الذاتي(reglage - auto) .

(فالكلية) تعني تشكل البنية من عناصر داخلية تنتظم بها ومن خلالها القوانين المميزة للنسق . وليس المهم في البنية هو الأجزاء أو العناصر ، وحتى المجموع نفسه ليس مهما ، وإنما المهم هو العلاقات القائمة بين الأجزاء والعناصر ، مما يعني أن قوانين التشكل التي تتحد من خلالها العناصر في مجموع ما تتميز بخصائصها النسقية ، وهو ما يستلزم استبعاد العناصر الخارجية عن البنية .

أما (التحولات) فهي سلسلة التغيرات الداخلية التي يخضع لها المجموع في شكل قوانين داخلية ناشئة من طبيعة النسق نفسه ؛ مما ينفي فكرة الثبات عن البنية ، فهي في تحول دائم وحركة ذاتية مستمرة .

و يعني (التنظيم الذاتي) قدرة البنية على الاحتفاظ بوحدتها ، من خلال قابلية عناصرها للانتظام فيما بينها ذاتيا ، وبعيدا عن أي مؤثر خارجي ، وبصورة

(1) Raymond Boudon : « structure dans les sciences humaines » in Encyclopædia Universalis 2004dvd rom.

(2) جان بياجيه : البنيوية ، ص 8 .

تكفل لها المحافظة على بقائها ، ليتحقق بذلك انغلاقها الذاتي الذي يضمن تميزها عن البنى المغايرة دون أن يمنعها من أن تندرج تحت بنية أخرى أوسع [1] .

ولا يبعد هذا التعريف عما ذهب إليه « سنكران رافيندران » « Sankaran Ravindran » في كتابه « البنيوية والتفكيك » حين قال : « بدءا أقول أن البنية تقتضي ضمنا وجود نسق(system) والنسق يمكن تعريفه بأنه الكل أو المجموع . وتنطوي البنية على عناصر يمكن ترتيبها أو إعادة ترتيبها . وستؤدي هذه الترتيبات (arrangements) أو إعادة الترتيبات (réarrangements) إلى تعديل البنية إلا أنها لن تغير هذه البنية » [2].

كما ينتهي روبرت شولز إلى رأي مشابه في قوله : « تكمن فكرة النسق في صميم البنيوية ، ذلك الكيان المنظم ذاتيا الذي يتكيف مع الظروف الجديدة من خلال تحويل سماته مع الإبقاء ، في الوقت ذاته ، على بنيته النسقية » [3].

إن بنية ما هي نسق يتكون من عناصر مترابطة في ما بينها ، وكل تغير يقع لإحداها يؤدي إلى تغيير مجموع العناصر . إلا أن النسق أكبر من البينة ؛ إذ يمكن للنسق أن يتضمن بنية أو مجموعة من البنى . وعليه قد يكون من الصواب اعتبار البنية وحدة أساسية في أي نسق .

د . الأصول اللسانية للمدرسة البنيوية :

يقول إميل بنفينيست (benveniste Emile): « لقد تم تأكيد مبد أ البنية كموضوع للبحث قبل سنة 1930 على يد مجموعة صغيرة من اللسانيين الذين تطوعوا للوقوف ضد التصور التاريخي الصرف للسان ، وضد لسانيات كانت تفكك اللسان إلى عناصر معزولة ، وتنشغل بتتبع التغيرات الطارئة عليه » [4] .

لكن المسلم به اليوم أن فرديناند دوسوسير(Ferdinand de Saussure)(1913 ـ 1857) هو الممهد الأول للاتجاه البنيوي في اللسانيات ، فالمنهج التاريخي الذي غلب على الدراسات اللغوية ، دفع به إلى وضع أسس اللسانيات البنيوية ، واعتماد منهجية تتعامل مع اللغة بوصفها نسقا أو نظاما يستحق أن يدرس وفق تصور معرفي جديد ينتقل من مفهوم الوجود إلى مفهوم العلاقة ، وأبرز المقولات

(1) بتصرف عن المرجع السابق ص 9 ، 11 ، 13 .
(2) سنكران رافيندران : البنيوية والتفكيك ، تر : خالدة حامد ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط 1 ، 2002 . ص 19 .
(3) نفسه ، ص 27 .
(4) عبد الله إبراهيم وآخرون ، معرفة الآخر ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط2 ، 1996 ، ص40 .

اللسانية التي انتهى إليها هي :

1 ـ ثنائية التزامن والتعاقب (synchronie et diachronie) .

2 ـ ثنائية اللغة والكلام (langue et parole) .

3 ـ ثنائية الدال والمدلول .

4 ـ اعتباطية العلامة [1].

فقد ميز دو سوسير بين دراسة الظاهرة اللغوية في وضعها السكوني الراهن وهي مجردة من أثر الزمن ، وبين الدراسة التي تعنى برصد تطور الظاهرة اللغوية في مسارها التاريخي ، كما نظر إلى اللغة باعتبارها منظومة ثقافية ذات طابع رمزي؛ فهي مؤسسة اجتماعية مستقلة عن الأفراد ، أما الكلام فهو المظهر الفردي الذي يبرز أثناء توظيف أي شخص لها .

يقول سوسير : « وإذا ما استطعنا جمع الصور المختزنة كلها لدى الأفراد ، فربما لمسنا الجانب الاجتماعي الذي يشكل اللغة ، إنها كنز يدخره الأفراد الذين ينتمون إلى مجموعة واحدة ، عبر ممارسة الكلام ، وهي منظومة نحوية موجودة بالقوة في كل دماغ ، وعلى وجه التحديد في أدمغة مجموعة أفراد ، إذ أنها لا توجد كاملة تامة عند الفرد وإنما لدى المجموعة » [2].

والوحدة الأساسية في اللغة ليست الكلمة ــ في صورتها النطقية أو شكلها الكتابي ـ وإنما هي العلامة . وتتكون العلامة من دال ما هو إلا متوالية خطية لمجموعة من الأصوات أو الحروف ، ومن مدلول هو الصورة الذهنية الناشئة من استعمال تلك الأصوات . والعلاقة بين الدال والمدلول غير مؤسسة علي أي نوع من أنواع الترابط المنطقي بينهما .

وتكمن أهمية النظرية السوسيرية في هذه الثنائيات التي تقوم على ازدواجية العلامة ، والتقابل بين اللغة والكلام ، والفرق بين التزامن والتعاقب . ومع أن سوسير لم يستعمل كلمة « بنية » ، إلا أن توظيفه مفهوم المنظومة أو النسق ، كان ممهدا أساسيا لتوظيف مفهوم البنية عند جماعة الشكلانيين ، وحلقة كوبنهاغن ، وبما أن العناصر اللغوية لا قيمة لها منفصلة عن المجموع ؛ فإن النص عند جماعة الشكلانيين بنية مغلقة تكتفي بذاتها بعيدا عن أي مؤثر خارجي ، واللغة

(1) انظر : فرديناند دوسوسير : دروس في اللسانيات العامة ، ت يوسف غازي ومجيد النصر ، المؤسسة الجزائرية للطباعة ، الجزائر ، 1986 .

(2) المرجع السابق ، ص 25 .

عند هلمسليف* بنية قائمة بذاتها مكتفية بنفسها تتطلب أساليب تحليلية خاصة بها[1] . وقد كان لجماعة الشكلانيين الروس أثر بارز في إرساء معالم المنهج البنيوي في الدراسات اللغوية واللسانية ، ففي المؤتمر الذي انعقد عام 1929 ببراغ ، قدم مصطلح بنية كمصطلح أساس في منهج الدراسة في مجال اللغة والأدب . وصارت مهمة اللساني هي استكناه القوانين البنيوية للمنظومات اللغوية . وقد استهلوا أعمالهم بدراسة الأصوات ، ذلك أن هذا المبحث كان في منهجهم من أبرز القضايا التي تتأسس عليها المفاهيم المتعلقة بدراسة الشعر .

وقد تجلى هذا الاهتمام بدراسة الأصوات من خلال أعمال جاكوبسون (jakobson) حول الفونيم (phonème) ، فالبحث في البنية اللفظية هو الهدف الممتاز للسانيات المعاصرة بأنواعها كافة ، ويستدعي تفحص النظام اللفظي تبصرا عميقا في تماسكه الداخلي ، وفي الطبيعة العلائقية والتراتبية الصارمة لجميع مكوناته[2] . وقد شكلت محاضراته عن« الصوت والمعنى» أساسا لعلم اللغة البنيوي .

إلا أن ياكوبسون لم يقف عند حدود الاستفادة من المقولات السوسيرية فحسب ، بل عمد إلى إغناء مفهوم البنية باقتراح مصطلح الوظيفة ، وقد بدا هذا المصطلح أساسيا في محاضراته عن الصوت والمعنى لدرجة جعلته يقول : « إن وظيفة الفونيمات في اللغة هي ظاهرة تقودنا إلى الاستنتاج الآتي : الفونيم يؤدي وظيفة إذن هو موجود» [3].

و مصطلح الوظيفة من الثوابت الأساسية التي قامت عليها نظرية التواصل عند ياكبسون؛ فانطلاقا من التقابل الأولي والشامل بين اللغة الشعرية واللغة واليومية توصل الشكلانيون إلى تمييز مفهوم اللغة اليومية حسب الوظائف المختلفة لها ، وانطلاقا من المفهوم العام للشكل انتهوا إلى مفهوم النسق ، ومنه إلى مفهوم الوظيفة ، وانطلاقا من التقابل بين الإيقاع الشعري والوزن أدركوا الشعر ، بوصفه شكلا متميزا للخطاب ، له خصائصه النظمية ، والمعجمية ، والدلالية التي يتميز بها عن الأجناس الأخرى [4].

* أحد أقطاب حلقة كوبنهاعن اللغوية التي ظهرت في الدانمارك ، وسيأتي الحديث عنها لاحقا .

(1) الزواوي بغورة : المنهج البنيوي ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، ط1 ، 2001 ، ص70 ..

(2) رومان ياكوبسون : الاتجاهات الأساسية في علم اللغة ، تر : علي حاكم صالح وحسن ناظم ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط1 ، 2002 ، ص 16 .

(3) رومان ياكوبسون : محاضرات عن الصوت المعنى ، تر : حسن ناظم وعلي حاكم صالح ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط1 ، 1994 ، ص 101 .

(4) انظر : بوريس ايخنباوم ، تاريخ وأبحاث ، في نظرية المنهج الشكلي ، نصوص الشكلانيين الروس ، تر : إبراهيم خطيب ، الشركة المغربية للناشرين المتحدين ، ط1 ، 1982 ، ص 67 و68 .

أما حلقة براغ التي تأسست سنة 1926 ، فقد توجهت نحو تأسيس فرع في اللسانيات ، يهتم بدراسة البنى الداخلية للنظم اللغوية ، مع التركيز على المعنى الوظيفي للنمط الصوتي ضمن نظام اللغة الشامل .

ومن أبر أعلام هذا الاتجاه : نيكولاي تروبتسكوي « Nikolaï Troubetskoï » (1890 ـ 1938) الذي اعتنى بتطوير مفهوم « الفونيم » بوصفه مفهوما وظيفيا ، ووحدة لا تقبل التجزئة إلى وحدات فونولوجية أصغر منها في لغة معينة . ومفهوم التضاد مفهوم أساسي عنده ، فهو كل تقابل صوتي يستخدم في لغة بعينها للتمييز بين المعاني ، واللغة بهذا المعنى نسق صوتي يؤدي وظائف متنوعة [1].

و في كتابه الشهير « مبادئ الفونولوجيا » يميز تربتسكوي بين علم الأصوات العام (phonétique) الذي يتناول الأصوات الكلامية في وضعها السكوني ، وصيغتها الفيزيائية ، وبين علم الأصوات الوظيفي (phonologie) الذي يدرس اللغات من حيث الوظائف التي تحققها أبنيتها الصوتية .

كما توسع تربتسكوي في هذه المسائل بتفريقه بين مظهرين أساسيين للدراسة الفونولوجية هما دراسة دور الأصوات الكلامية في أداء الوظيفة التمثيلية للغة أولا ، ودورها في أداء الوظيفة التعبيرية والوظيفة الندائية ثانيا . وأما الحقل الأول فقد أطلق عليه اسم الفونولوجيا (phonologie) وأطلق على الحقل الثاني اسم الأسلوبية الصوتية (phonostylistique) كما اهتم أعضاء مدرسة براغ بالعلاقات الاستبدالية بين الفونيمات ، أي بطبيعة التقابل بينها في نقطة معينة من التركيب بدلا من الاهتمام بالعلاقات التركيبية التي تحدد كيفية تنظيم الفونيمات في وحدات اللغة [2].

وفي الدانمارك كانت الحلقة اللسانية التي أوجدها هلمسليف (Hjelmslev) (1899 - 1965) في عام 1931 في كوبنهاغن ، قد بلورت نظرية الوحدة الصوتية(فونيم) التي عرفت فيما بعد باسم(سينيم Cénéme) ، فقد أبرزت اللغة كبنية مستقلة ذاتيا ، وبدت كاتجاه شديد التعصب للمقولات السوسورية . وتقوم هذه النظرية على البحث في نسق العلاقات الداخلية الذي تنتظم من خلاله وتتوزع عبره الغلوسيمات (glossèmes)بوصفها أصغر الوحدات الدلالية في اللغة . والغلوسيم قد يكون حرفا أو كلمة أو تنغيما أو نظما خاصا للكلمات[3] .

وقد دعا إلى الاهتمام ببنية اللغة بما هي صيغة أو صورة ، لأن المعاني

(1) Prague school, in Encyclopedia Britannica 1999, cd rom.

(2) أحمد مومن : اللسانيات النشأة والتطور ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 2002 ، ص143 .

(3) Glossematics , in Encyclopedia Britannica 1999 . cdrom.

متواجدة في كل اللغات ، ولكنها تختلف من ناحية الصيغة التي تجسدها وتجعل لها حضورا قائما في الذهن ، ومن أجل هذا فإن دراسة بنية اللغة تفترض بناء نماذج رياضية منطقية ترتكز على بحث مجموع العلاقات القائمة بين أجزاء اللغة الواحدة ، وبناء على هذا التصور فإن كل نص أو خطاب ـ شفويا كان أو مكتوبا ـ إنما هو نسيج مؤلف من جملة علاقات داخليةً تصل بين عناصره اللغوية ، ويهتم هلمسليف بمقولة الصيغة والمحتوى : « il n'y a de contenu que structuré dans une forme » ، فلا وجود لأي محتوى إلا من خلال انبنائه في صيغة ما ، ومن هذا المنطلق فقد وجه نقده لمدرسة براغ آخذا عليها قصور نظرتها إلى قضايا التعبير الفني من خلال البحث عن وظيفة الأصوات داخل اللغة؛ ذلك أن الصيغة قد لا تتمظهر في الصوت فحسب ، بل في الإشارة كذلك ، كما يمكن تجسيدها من خلال شفرة كتابية ما (1).

أما في أمريكا فقد برز مفهوم البنية من خلال دراسات وأعمال كل من ليونارد بلومفيلد « Leonard Bloomfield » (1887 ـ 1949) ونعوم تشومسكي المولود عام 1928 ، وبينما برزت جهود بلومفيلد من خلال نظريتة التوزيعية ، انصرفت اهتمامات تشومسكي إلى النحو التوليدي . واللغة في نظر بلومفيلد عرضة للتأثر بسياقات اجتماعية ، ووضعيات نفسية يخضع لها المتكلم؛ مما جعله يستبعد دراسة المعاني في البحث اللغوي ، وقرر ضرورة القيام بدراسة تزامنية صارمة عند وصف اللغة تقوم إتباع خطوات آلية أو مادية . وتجلت مبادئه في محاولة تحليل الخطاب ودراسة توزيع الوحدات اللسانية عن طريق المدونة أو المجموعة النصية(Corpus) وذلك باعتماد الخطوات الآتية :

ـ القيام بجمع أكبر عدد ممكن من الكلمات .

ـ وصف وترتيب هذه المفردات .

ـ الاهتمام بالسياق بدلا من الوظيفة والمعنى .

ـ ضرورة القيام بعملية وصفية دقيقة يقتصر فيها على وصف اللغة (2) .

و تفترض قراءة المدوّنة كنسق لغوي ، تحليل مجموعة الجمل المشكلة لهذا النسق ، تحليلا لسانيا ، لاستخراج البنيات التي يتكوّن منها ، وهذا ما يستلزم تفكيك العناصر اللغوية على مستويات متباينة ، تستهدف فحص الخصائص

(1) Un structuralisme algébrisé : la glossématique , in structuralisme , Encyclopædia Universalis 2004 dvd .

(2) الزواوي بغورة : المنهج البنيوي ، دار الهدى ، عين ملبلة ، الجزائر ، ط1 ، 2001 ، ص 48 .

الصوتية ، والصرفية ، والدلالية .

وقد ميز تشومسكي بين مفهومي الكفاءة(Competence) والأداء (Performance) ، فالكفاءة تفترض قدرة الشخص على إنتاج وفهم عدد لامتناه من الصيغ اللغوية ، ولولم يسمعها من قبل؛ ذلك أنها تتصل بالمعرفة اللغوية الباطنية للفرد ، أي مجموع القواعد التي تعلمها . بهذا المفهوم تعدُّ الكفاءة نسقاً عقلياً ، أو بنية تضبط الاستعمال اللغوي .

أما الأداء فهو الاستعمال الفعلي للغة في المواقف الحقيقية . وبالنسبة للألسني فإن الكفاءة هي موضوع الدراسة . أما التقارب بين ثنائية الكفاءة والأداء عند تشومسكي ، وثنائية اللغة والكلام عند سوسير ، فهو تقارب زائف؛ ذلك أن مفهوم الكفاءة يمتاز بالدينامية والحركة ، وهو مفهوم يحيل على الوظيفة الإبداعية للغة ، بعكس مفهوم اللغة عند سوسير؛ إذ هو سكوني ثابت [1]. واعتمد تشومسكي على مستويين لدراسة اللغة حين ميز بين البنية السطحية التي تنشأ من تتابع الألفاظ التي يستعملها المتكلم ، مما يعني أن البنية السطحية ذات طبيعة خطية أفقية . أما البنية العميقة فهي الأنظمة الداخلية التي يستكشف من خلالها منطق اللغة [2].

وما يمكن استخلاصه من هذا العرض السريع والمقتضب هو أن مفهوم البنية كان قاسما مشتركا بين المدارس اللسانية إذ شكل ثورة منهجية على الدراسات التاريخية للغة ، فقد حرص أغلب الاتجاهات على استثمار مقولة البنية من أجل بناء نماذج نظرية ، ومناهج تمكنها من فهم الآليات المتحكمة في الأنساق اللغوية المختلفة . وقد ظل مفهوم البنية حاضرا في جميع المناهج اللسانية بوصف البنية نظاما متسقا تتحد كل أجزائه بمقتضى رابطة تماسك ، تجعل من اللغة مجموعة منتظمة من الوحدات المنطوقة [3].

ه . البنية في الدراسات العربية :

لم يبعد الدارسون العرب عن المفهوم الغربي للبنية؛ ذلك أن توظيفهم له إنما تم من باب استعارة الشيء الجاهز ، ولم يعْدُ عن أن يكون توظيفا استهلاكيا ، ولعل هذا عائد إلى ضمور آليات فعل التفلسف العربي ، وقصور أدواته الإجرائية ، مما جعله غير قادر على ابتداع مفاهيمه الخاصة ، ومناهجه المستقلة .

(1) خولة طالب الإبراهيمي : مبادئ في اللسانيات ، دار القصبة للنشر ، الجزائر ، 2000 ، ص 105 .
(2) الزواوي بغورة : المنهج البنيوي ، ص 49 .
(3) ابراهيم زكريا : مشكلة البنية ، مكتبة مصر ، د ت ت ، ص 70 .

وافتقار الفكر العربي الراهن إلى منظومته المعرفية الخاصة ، جعل استقباله لمفهوم البنية باهتا وغير واضح المعالم ، وهو ما يعضده قول الدارس أحمد يوسف : « على الرغم من شيوعها [أي البنية] في معجم الخطاب النقدي ، إلا أنها كانت تستخدم بكيفية مجانية لا يعضدها تصور نظري متين ، وإلمام متبصر بخلفياتها المعرفية ، وإلا كيف نفسر أن أغلب المقاربات البنيوية لم تتوقف طويلا عند مصطلح البنية ، لكي تقدم تصورها لهذه المقولة التي يراد لها أن تكون إجرائية في أثناء الممارسة النقدية » (1).

ولعل أول من استعرض المفاهيم الغربية للبنية هو زكريا إبراهيم في كتابه(مشكلة البنية) الذي أصدره عام 1976 ، وقد عرف البنية بوصفها نظاما أو نسقا من المعقولية؛ فهي القانون الذي يفسر تكوين الشيء ومعقوليته ، ورغم أنه حاول الإلمام باتجاهات البنيوية وبأعلامها في شتى الحقول العلمية ، ولكن هذه الشمولية اضطرته إلى التبسيط ، وأبعدته عن حقلين أساسيين هما : الأدب ، والنقد الأدبي .

وقد وضع صلاح فضل كتابه (البنائية في النقد الأدبي) سنة 1977 ، فتحدث عن أصول البنيوية لدى سوسير ، والشكلانيين الروس ، وحلقة براغ اللغوية ، والمدرسة الألسنية الأمريكية ، ثم عرف بالبنية وبالبنيوية ، وتحدث عن تطبيقاتها في العلوم الإنسانية ، وعن معاركها مع الوجودية ، كما تحدث عن البنيوية في الأدب والنقد ، ولغة الشعر ، وتشريح القصة ، والنظم السيميولوجية (2) . ومن الدراسين الذين عرضوا لمفهوم البنية جابر عصفور ، فقد عرف البنية بصفتها نسقا من العلاقات الباطنة (المدركة وفقا لمبدأ الأولية المطلقة للكل على الأجزاء) له قوانينه الخاصة المحايثة ، من حيث هو نسق يتصف بالوحدة الداخلية والانتظام الذاتي ، على نحو يفضي فيه أي تغير في العلاقات إلى تغير النسق نفسه ، وعلى نحو ينطوي معه المجموع الكلي للعلاقات على دلالة يغدو معها النسق دالا على معنى (3).

وقد استعملت الناقدة يمنى العيد مصطلحات النظام ، والنسق ، والبنية من غير أي فصل منهجي بينها إذ تقول : « النظام يفترض إذاً حالة ثبات في البنية ، أو يفترض حركة متكررة داخل البنية ، حركة تنهض بين العناصر وتوازن بينها أو

(1) أحمد يوسف : القراءة النسقية ، الجزء الأول ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط1 ، 2003 ، ص229 .

(2) انظر : محمد عزام ، تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحداثية ، في موقع اتحاد الكتاب العرب ، والرابط هو :
www.awu-dam.org\book\03\study03\316-m-aaa\book03-sd003.htm.

(3) انظر تعريفه بالمصطلحات الأساسية في ترجمته لكتاب إديث كيرزويل عصر البنيوية ، دار قرطبة ، الدار البيضاء ، ط2 ، 1986 ، ص 289 .

توازن العلاقات بينها بما يكفل استمرار النسق لهذه البنية أو بما يكفل استمرار البنية في نسقها »[1] .

ويذكر سالم يفوت تعريفا آخر للبنية بقوله : « هي ذلك المفهوم الذي يعتبر أن العناصر الجزئية لا تكتسب معنى في حد ذاتها وهي منفردة ، كما لا يكتسب دوران الإلكترون معنى في حد ذاته . وإنما تنبع حقيقتها ومعناها عند ارتباطها بسياق كلي أو منظومة »[2] .

وإيراد هذه التعريفات قد يبين أن تلقي النقاد والمفكرين العرب لمفهوم البنية ، إنما كان من قبيل التلقي السلبي القائم على التأثر التقليدي بالغرب في المناهج والأفكار والدراسات ؛ أما الدراسات التطبيقية فقد اختلفت مجالاتها ويتعذر حصرها في مجموعة عناوين؛ لأن مقام البحث لا يتسع لهذا الإجراء الذي هو من قبيل الإحصاء الموسوعي .

II. الخطاب السردي في الدراسات البنيوية :

كان للمناهج المعاصرة في دراسة اللغة أثرها الفاعل في تحويل وجهة العلوم الإنسانية عامة نحو استحداث كثير من التقنيات والآليات والمناهج التي حفزت الباحثين النقد الأدبي على على الإفادة من مقولات البنية ، والنظام والنسق ، والوظيفة .

ويتكئ هذا العرض على اختيار كل من بروب ، وبارت ، وجينيت ، كنماذج لتوظيف بعض المفاهيم البنيوية ، في مقاربة النص السردي ، واختيار هؤلاء الأعلام يرد هنا ، من باب الإشارة إلى تنوع المداخل النظرية ، والمقاربات المنهجية في تناول النص السردي ، بوصفه بنية ذات عناصر داخلية ، ترتبط فيما بينها بمجموعة من الوظائف ، ومفهوم الوظيفة مفهوم بنييوي بالأساس ، إلا أنه لا ينحصر في التصور الذي أقامه بروب في معرض دراسته لبنية الخرافة . لذلك نجده عند بارت بتصور مغاير ، أما جينيت فقد ركز على الوظائف المرتبطة بتوزيع الزمن السردي ، ولكنه في البداية يميز بين القصة والحكاية والسرد ، مستفيدا من دراسات الشكلانية التي ميزت بين المبنى الحكائي والمتن الحكائي .

أ . بروب والمثال الوظائفي :

من نافلة القول إن أول من اعتمد مفهوم البنية في دراسة الأشكال السردية

(4) يمنى العيد : في معرفة النص ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ط3 ، 1985 ، ص 32 .
(4) سالم يفوت : فلسفة العلم المعاصرة ومفهومها للواقع ، دار الطليعة ، بيروت ، ط 1 ، 1984 ، ص220 .

هـو الروسـي فلاديمـير بـروب « Vladimir Propp » ، إذ أصـدر كتابـه الشـهير « بنيـة الحكاية الخرافية »(Morphologie du conte) سنة 1928 منطلقـا مـن تصـور بنيـوي يفترض أن جميع النصوص السردية تخضع لنسق خاص من ترتيب الأحداث .

وفي الفصل الأول من الكتاب(تاريخ المسألة) ينعى علـى الدراسـات السـابقة بؤس منهجها التاريخي ، وغرقهـا في فوضـى المصـطلحات والمفـاهيم ، وضـمور أدواتها الإجرائية [1].

وقد كانت مـادة بحثـه الأولى مجموعـة مـن الحكايـات الخرافيـة الروسـية ، ناهزت المائة ، تمكن بروب من خلال دراستها من اكتشاف القـوانين المتحكمـة في بنية الحكاية الخرافية ، باعتماد دراسة تزامنيـة؛ إذ لاحـظ في المجموعـة المدروسـة وجود نمطين من العناصر التي تشـكل المـتن الحكـائي للخرافـة ؛ فهنـاك عناصـر ثابتة وأخرى متحولة . فالتحول له صلة بالأسماء والأماكن والأوصاف ؛ ومنـه فقـد نلفـي الحكايـة الواحـدة عنـد مجموعـة مـن الشـعوب ولكـن أسمـاء الشخصـيات والأماكن والأوصاف هي التي تتغير ، أما العناصر الثابتـة فهـي أعمـال الشخصـيات منظورا إليها من حيث ترتيبها السببي الذي تتشكل منه سلسلة الأحـداث المحكيـة ، ويسوق بروب لذلك مثالا بعرضه أربع عينات من خرافات مختلفة :

1 ـ أعطى الملك نسرا لرجل شهم ، حمل النسر الرجل الشهم إلى مملكة أخرى .

2 ـ أعطى الجد حصانا لسوتشينكو ، الحصان حمل سوتشينكو إلى مملكة أخرى .

3 ـ أعطى الساحر إيفان قاربا ، القارب حمل إيفان إلى مملكة أخرى .

4 ـ أعطت الملكة خاتما لإيفان ، خرج من الخاتم رجال أقوياء وحملـوا إيفـان إلى بلاد أخرى [2].

اسـتنتج بـروب مـن هـذا المثـال أن الأفعـال نفسـها تسـند إلى شخصـيات مختلفـة ، ومـن هنـا فإنـه يمكـن أن تـدرس هـذه الحكايـات مـن خـلال وظـائف الشخصيات . وفي سياق بحثـه في وظـائف الشخصـيات ، يعـرف بـروب الوظيفـة بقوله : « هي عمل الفاعل معرفا من حيث معناه في سير الحبكة » .

ومن هنا يمكن اعتبار الحكاية بنية ذات انتظام داخلي له قوانينه الخاصة الـتي تسمح له بالتكيف مع المتغيرات اللغوية والثقافية للشعوب دون أن يفقد تماسـكه ، أو يختل توازن عناصره التي تشكله .

---

(1) Vladimir Propp : Morphologie du conte,édition point , paris , 1973 , p11.

(2) المرجع السابق ، ص 29 .

كما لاحظ بروب أن انتظام الوظائف في الخرافة يخضع لأربعة قوانين أساسية هي :

1 ـ العناصر الثابتة في الخرافة هي الوظائف وأفعال الشخصيات .

2 ـ عدد الوظائف في الخرافة محدود .

3 ـ تسلسل الوظائف هو نفسه دائما .

4 ـ الخرافات العجيبة كلها ذات بنية واحدة ونمط واحد [1]. وذهب بروب في الفصل الثالث إلى إحصاء عدد الوظائف التي بلغت إحدى وثلاثين وظيفة تبدأ عادة بوضع أولي(situation initiale) ينشأ عنه افتقار ما ، ثم تتوالى الأحداث والوظائف في محاولة إصلاح الافتقار الحاصل . وعادة ما يصور الوضع الأولي حالة توازن وسعادة(تبدأ الحكاية مثلا بذكر أمير يمتلك حديقة رائعة ينبت فيها تفاح من ذهب) [2] .

ولكن هذا الوضع يتغير بحصول إساءة أو مشكلة ما ، فيرشح لها بطل يتعرض لعدة اختبارات (سفر ، صراع مع كائنات غريبة أو رجال أشداء ، فك طلاسم سحرية ، الإجابة عن أسئلة غامضة) عادة ما تنتهي بإصلاح الافتقار واستعادة الوضع الأصلي ، ثم تنتهي الخرافة بالاعتراف بالبطل ومكافأته .

وتفضي الطبيعة الخطية للخرافة(وضع أصلي ــ حصول إساءة ــ افتقار ـ ترشيح البطل ـ اختبارات ـ تجاوز العقبات ـ إصلاح الافتقار ــ وضع نهائي) إلى تصور المثال الوظائفي لبروب وفق الشكل التالي : *

الوضع الأصل : حصول الإفتقار	ـ توازن(سعادة) ـ انعدام التوازن(حصول إساءة) ـ رحيل ـ منع / خرق ـ استخبار / اطلاع ـ خدعة / تواطؤ عفوي ـ إساءة /حصول الافتقار

(1) المرجع السابق ، ص 31 و32 و33 .

(2) سمير المرزوقي وجميل شاكر : مدخل إلى نظرية القصة ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر والدار التونسية للنشر ، ط1 ، د ت ، ص 25 .

* الشكل مستعار من المرجع نفسه بشيء من التصرف .

تطور الحبكة : ترشيح البطل	ـ طلب النجدة / تلبية البطل ـ تفويض / انطلاق ـ أول وظيفة للمانح / إعداد البطل لتسلم الأداة السحرية ـ رد فعل البطل / تسلم الأداة .
العقدة : إصلاح الافتقار	ـ انتقال إلى مملكة أخرى ـ صراع / علامة / هزيمة المعتدي / انتصار البطل ـ إصلاح الافتقار / العودة / مطاردة البطل ـ توفر النجدة
الوضع النهائي : استعادة الوضع الأصلي	ـ وصول البطل خفية ـ مطالب كاذبة(صادرة عن بطل مزيف) ـ عمل صعب يعرض على البطل / انجاز العمل ـ التعرف على البطل الحقيقي / انكشاف البطل المزيف ـ معاقبة المعتدي / مكافأة البطل

وقد انتبه بروب إلى الرابطة المنطقية التي تجمع بعض الوظائف؛ إذ ألفاها تتوزع على الشخصيات في شكل دوائر سبع ، هي :

1 ـ دائرة المعتدي : الإساءة ، الصراع مع البطل ، المطاردة .

2 ـ دائرة المانح : الإعداد لنقل الأداة السحرية ، وضعها تحت تصرف البطل .

3 ـ دائرة المساعد : انتقال البطل في المكان ، إصلاح الافتقار ، النجدة أثناء المطاردة ، تغيير شكل البطل .

4 ـ دائرة الأميرة ، الأب(الشخص المفقود) : طلب القيام بأعمال شاقة ، وضع علامة ترشد البطل ، اكتشاف البطل المزيف ، التعرف على البطل الحقيقي ، معاقبة المعتدي ، والزواج .

5 ـ دائرة المرسل : إرسال البطل

6 ـ دائرة البطل : السفر والبحث ، تلبية طلبات المانح ، الزواج .

7 ـ دائرة البطل المزيف : السفر والبحث ، عدم تلبية طلبات المانح ،

الإدعاءات الكاذبة [1] .

وتكمن أهمية نموذج بروب العلمية في كشفه قانون الوظائف ، الذي يتحكم في عملية السرد ، متجاوزا بذلك التفسيرات الخارجية التي تقحم عنوة في التحليل . فرغم محدودية هذا النموذج ، من حيث المادة المدروسة ، ومن حيث عدم قابليته للتعميم على جميع الأشكال السردية ، إلا أنه حول وجهة البحث السردي ، صوب الدراسة المخبرية العلمية ، من خلال النظر إلى النص السردي ، بوصفه بنية لها عناصرها الثابتة ، التي يقوم عليها الهيكل السردي ، ولا عبرة لاختلاف القالب اللغوي أو السياق الخارجي الذي ينشأ فيه النص .

ب. مقاربة بارت :

يلاحظ رولان بارت « barthes roland » غزارة الأشكال السردية وتنوعها اللانهائي؛ فالسرد حاضر في الأسطورة ، الخرافة ، المثل ، القصة القصيرة الملحمة التاريخ التراجيديا السنيما الخ . والسرد حاضر لدى كل الأمم ، وفي كل الأزمنة ، منذ فجر الإنسانية الأول [2].

وأمام هذا الركام الهائل من السرد عمد إلى استعارة المنهج الوصفي التزامني من اللسانيات لصياغة نموذج عام يمكنه أن ينسحب على جميع الأشكال السردية ، ثم اقترح خمسة عناصر تؤسس نموذجه النقدي هي : لغة السرد ، والوظائف ، والأعمال ، والسرد ، ونظام السرد .

لغة السرد : يعمد بارت إلى تصور القصة بوصفها جملة كبيرة ، وبما أن الجملة هي أكبر وحدة لسانية تقبل الدراسة والتحليل ، فإنه يجدر بالباحث أن يتعامل مع الخطاب السردي بمقاييس مشابهة لتلك التي يدرس بها الجملة؛ فالخطاب لا يملك شيئا إلا وجد في الجملة[3] .

يميز بارت بين العلاقات التوزيعية التي تعكس تراتب الوحدات الخطابية في مستوى واحد ، وبين العلاقات الوظيفية إذ تتحد العناصر فيما بينها مشكلة عدة مستويات ، وأن يفهم المرء سردا ، لا يعني فقط أن يتتبع تحلل التاريخ ، بل أن يعترف بوجود مراتب ، ثم أن يسقط التتابعات الأفقية على محور عمودي ؛ وأن تقرأ سردا ، لا يعني مرورا من لفظ إلى آخر ، بل أن تتجاوز المستوى إلى آخر[4] .

---

(1) Morphologie du conte , p 97 .

(1) رولان بارث : النقد البنيوي للحكاية ، منشورات عويدات ، بيروت باريس ، ط1 ، 1988 ، ص 89 .

(2) المرجع السابق ، ص 93 .

(3) نفسه ، ص 99 .

لهذا يقترح بارت أن تدرس القصة عبر ثلاثة مستويات تندمج فيما بنيها في خطاب كلي له نظام رموزه الخاص ، وهذه المستويات هي الوظائف والأعمال والسرد .

الوظائف : تتأسس مقولة الوظائف عند بارت على مبدأ تفكيك الخطاب السردي إلى مقاطع ، وما يتعين به المقطع السردي هو الوظيفة التي يتضمنها ، وما يحدد الوظيفة هو المعنى الذي تتضمنه ، فالوظيفة ـ بتعبير بارت ـ هي وحدة محتوى مندمجة ضمن نسق متكامل .

ويميز بارت بين الوظائف والقرائن ، فالوظائف متصلة بأعمال الشخصيات وتحدد من منظور توزيعي ، ومثالها شراء مسدس واستعماله ، أما القرائن فتتصل بأوصاف الشخصيات وتحدد من منظور إدماجي . وتختلف نسبة الوظائف والقرائن في النص باختلاف نوعه ، ففي القصص الشعبي تكون الصدارة للوظائف ، أما القرائن فتبرز أكثر في الرواية النفسية (1).

كما يفرق بارت بين الوظائف الكبرى ، والوظائف الصغرى في القصة . فالوظائف التي تعد عناصر أساسية في السرد ، ولا يمكن الاستغناء عنها؛ لأنها تشكل مفاصل القصة ، هي الوظائف الكبرى ، وتترابط هذه الوظائف فيما بينها ترابطا سببيا ، كما إنها تتضمن لحظات مخاطرة ، أما الوظائف الصغرى فتتعاقب دون ارتباط سببي ، وهي في الأصل وظائف مساعدة ذات وظيفة تنبيهية ، إذ تبقي على الاتصال بين الراوي والمروي له .

الأعمال : يتناول بارت في هذا المستوى مفهوم الشخصية ، وكيف أنها كانت في الدراسات الكلاسيكية تجسد جوهرا نفسانيا ، يكون غالبا ذا صورة نمطية في المسرح البرجوازي ، ثم يتعقب بارت اختزال بروب للشخصيات إلى نماذج جاهزة ، تتموضع بصورة آلية في ثنايا السرد بحسب الوظيفة المسندة إليها .

وتصور بارت للشخصية يستلزم استبعاد الجوهر النفسي ، إذ نظر إليها من موقع مشاركتها في دائرة الأعمال ، لكن ينبغي ألا يفهم من الأعمال كل ما تضطلع به الشخصيات، إنما المراد هو الأفعال الكبرى ذات الصلة بالوظائف الأساسية ، وهذه الأفعال يمكن دمجها في ثلاثة محاور هي : الرغبة والتواصل والصراع .

وقد يكون من المفيد الاستعانة بالنموذج العاملي القائم على تقابل الأزواج(فاعل/ منفعل ، ذات/ موضوع ، مساعد/ معارض) غير أن نمذجة الشخصيات على هذا النحو من منظور عاملي كما صنع غريماس من الصعب أن

(1) محمد القاضي : تحليل النص السردي ، دار الجنوب للنشر ، تونس ، 1997 ص 37 .

تغطي كل الأشكال السردية؛ لذا يقترح بارت توظيف المنظور النحوي في دراسة الشخصيات ، وذلك بتمييز المستوى الشخصي(أنا / أنت / ت / تَ) عن المستوى اللاشخصي(هو) ، وهذا ما يمكن أن يطلق عليه لعبة الضمائر السردية [1].

السرد : يتناول بارت مفهوم السرد من منظور تواصلي ، فليس السرد غير وسيط بين طرفين ، أحدهما مرسل(راو أو كاتب) ، والآخر مرسل إليه(مستمع أو قارئ) ، ولا سرد يتحقق دونهما . وتحقيقا لهذه الرؤية ، ينبغي كشف نظام الترميز ، الذي يصل السارد بالقارئ ، مما يعني تجاوز مسألة حضور السارد في النص ، لأنه حاضر غالبا من خلال ضمير الأنا ، كما إن العلامات الدالة عليه أقوى وأظهر . أما تجلي القارئ في السرد فغالبا ما أهمل ، فلم ينتبه إليه [2] .

ويخلص بارت إلى التمييز بين المؤلف كشخص واقعي له حضور مادي ومعنوي في الحياة ، وبين السارد الذي يتواجد مع السرد ، وضمنه ، وينتهي معه كذلك ، فما الراوي والشخصيات إلا كائنات من ورق [3].

بهذا التمييز يكون السرد شخصيا في حال توظيف ضمير المتكلم ، وغير شخصي مع ضمير الغائب ، ولكن قد يتداخل الشخصي مع غير الشخصي أحيانا ، عندما يحيل ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم في شكل من المراوغة السردية التي غالبا ما نجدها في الرواية النفسية [4].

نظام السرد : يتأسس السرد كنظام علامات ، لا يتحقق إلا بوجود شكل ومحتوى ، إذ تندمج الوحدات الشكلية مع الوحدات المعنوية ، في إجراء ثنائي يجده الباحث في لغة السرد [5].

ومن جهة المحتوى ، تنبني المتواليات السردية وفق تدرج هرمي ، من شأنه تكثيف السرد بوصل العناصر المتناقصة ظاهريا (الاستدارات إلى الخلف ، والقفزات إلى الأمام) في محاولة لتجاوز الواقع؛ إذ إن وظيفة السرد ليست تمثلا لما هو كائن ، بل هي تشكيل مشاهد لغزية لا أثر فيها للمحاكاة والتكرار [6].

وما يخلص إليه البحث هو إن المقاربة التي اعتمدها بارت في حقل السرد

(2) رولان بارث : النقد البنيوي للحكاية ، ص 128 .
(1) نفسه ، ص 129 ..
(2) نفسه ، ص 131 .
(3) محمد القاضي : تحليل النص السردي ، ص 40 .
(4) رولان بارت : النقد البنيوي للحكاية ، ص 139 .
(5) المرجع السابق ، ص 148 .

قد أثارت بعض القضايا المنهجية في تحليل السرد ، كالإشارة إلى الفرق بين المؤلف والسارد ، والتمييز بين الوظائف الأساسية والوظائف الثانوية ، إلا أنها تبدو في مواضع متعددة مسرفة في التجريد ، وغير واضحة المعالم .

كما إننا لا نجد تمييزا واضحا عن بارث بين شكل السرد والمضمون الذي يحيل عليه . لكن مقاربته تبقى دالة على أهمية التحول النظري

ج ـ تحديث المفاهيم السردية عند جينيت :

من أبرز الإسهامات النقدية التي أغنت علم السرد تعد اجتهادات جيرار جينيت « Genette » في هذا المجال هي الأوسع والأكثر خصوبة وعمقا ، وما تزال إلى الساعة كتبه الثلاثة(خطاب الحكاية) و(عودة إلى خطاب الحكاية) و(حدود المحكي) محل اهتمام عند النقاد والدارسين .

وتنفتح المقاربة النقدية للسرد عند جينيت على التمييز بين الحكاية(Récit) والخطاب (Discours) في مدخل كتابه « خطاب الحكاية »(discours du récit) ، إذ يشكو من الالتباسات المتعلقة بتوظيف مفهوم الحكاية(Récit) ، ويدعو إلى معالجتها ، ثم يعرض ثلاثة معان للحكاية هي :

ـ الأول : الخطاب الشفوي أو المكتوب إذ يصل بين حدث وحدث ، أو يعرض سلسلة من الأحداث ، فالحكاية هنا هي اللغة بصفها أداة لعرض وقائع غير لغوية .

ـ الثاني : سلسلة من الأحداث الواقعية أو المتخيلة حين تتابع لتشكل موضوع الخطاب أي إن الحكاية هي مجموع الأحداث منظورا إليها في ذاتها .

ـ الثالث : قيام شخص ما برواية حدث ما ، إنه فعل السرد ذاته [1] .

أما جينيت فيتناول الحكاية في معناها الأول (الحكاية كملفوظ لغوي) ، إلا أنه يقيم دراسة الخطاب السردي على مبدأ بحث الراوبط الموجودة بين الخطاب والأحداث المروية (مجموع الوقائع الحقيقية أو المتخيلة) ، وبين الخطاب وفعل السرد .

وقد اضطره هذا التصور فيما بعد إلى التمييز بين الاستعمالات السابقة لمفهوم الحكاية على نحو آخر؛ إذ يقدم ثلاثة مصطلحات هي :

ـ القصة(Histoire) : المادة الحكائية بوصفها مدلولا ، أو الأحداث والوقائع بوصفها مضمونا سرديا .

1) جيرار جينيت : خطاب الحكاية ، تر : محمد معتصم ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، 2004 ، ص 37 .

ـ **الحكاية(Récit)** : الشكل اللغوي الذي بوصفه دالا ، أو الملفوظ بما هو نص سردي له تحققه في اللغة .

ـ **السرد(Narration)** : فعل السرد ، أي تصرف شخص ما بكيفية عرض المادة الحكائية ، وتحكمه بأساليب تقديمها [1] .

خاتمة

صفوة القول هي إن ما يستخلص من هذا الاهتمام بقضايا المفهوم والمصطلح عند كل من بروب وبارت وجينيت ، يبرز أن تأثير البنيوية ــ كفلسفة ومنهج بحث ـ كان له دور لم ينحصر في استحداث آليات وأدوات جديدة لتناول الظاهرة السردية فحسب ، بل تجاوزه إلى مجال التنظير الهادف إلى ضبط التصورات ، والتمييز بين المفاهيم ، والصرامة في توظيف المصطلحات ، مما أدى في النهاية إلى إغناء التجارب النقدية المتصلة بتحليل الخطاب السردي .

ثبت المصادر والمراجع

1 ـ عمر مهيبل : البنيوية في الفكر المعاصر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط2 ، 1993 .
2 ـ الزواوي بغورة : المنهج البنيوي ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، ط1 ، 2001 .
3 .Encyclopædia Universalis dvd rom ,2004 ,10éme ed ,
4 . Encyclopédie Hachette Multimédia - 2005 cd rom ,Version 9
5 ـ ابن منظور : لسان العرب ، دار صادر ودار بيروت ، 1968 ، مج 14 .
6 ـ الزواوي بغورة وآخرون : مدخل جديد إلى فلسفة العلوم ، مطبوعات جامعة منتوري ، قسنطينة ، د ط ت .
7 ـ الموسوعة الشعرية ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، الإصدار الثالث ، قرص مدمج .
8 ــ ريمون بودون : موضع الفوضى ، ترجمة منصور القاضي ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت، ط1 ، 1999 .
9 ـ جان بياجيه : البنيوية ، تر : عارف منينمة وبشير أوبري ، منشورات عويدات ، بيروت ـ باريس ، ط4 ، 1975
10 ـ سنكران رافيندران : البنيوية والتفكيك ، تر : خالدة حامد ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط 1 ، 2002 .
11 ـ عبد الله ابرهيم وآخرون ، معرفة الآخر ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط 2 ، 1996 .
12 ـ فرديناند دوسوسير : دروس في اللسانيات العامة ، ت يوسف غازي ومجيد النصر ، المؤسسة الجزائرية للطباعة ، الجزائر ، 1986 .
13 ـ الزواوي بغورة : المنهج البنيوي ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، ط1 ، 2001 .
14 ـ رومان ياكوبسون : الاتجاهات الأساسية في علم اللغة ، تر : علي حاكم صالح وحسن ناظم ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط1 ، 2002 .
15 ـ رومان ياكوبسون : محاضرات عن الصوت المعنى ، تر : حسن ناظم وعلي حاكم صالح ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط1 ، 1994 .
16 ـ بوريس ايخنباوم ، تاريخ وأبحاث ، في نظرية المنهج الشكلي ، نصوص الشكلانيين الروس ، تر : إبراهيم خطيب ، الشركة المغربية للناشرين المتحدين ، ط1 ، 1982 .
17 ـ أحمد مومن : اللسانيات النشأة والتطور ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 2002 .
18 ـ خولة طالب الإبراهيمي : مبادئ في اللسانيات ، دار القصبة للنشر ، الجزائر ، 2000 .

(2) المرجع السابق ، ص 39 .

18 ـ ابراهيم زكريا : مشكلة البنية ، مكتبة مصر ، د ط ت ، .
19 ـ أحمد يوسف : القراءة النسقية ، الجزء الأول ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط1 ، 2003 .
20 ـ محمد عزام ، تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحداثية ، في موقع اتحاد الكتاب العرب ، على الرابط :
www . awu - dam . org\book\03\study03\316 - m - aaa\book03 - sd003 . htm .
شوهد بتاريخ 12 ـ 05 ـ 2006 »
21 ـ إديث كيرزويل عصر البنيوية ، تر جابر عصفور ، دار قرطبة ، الدار البيضاء ، ط2 ، 1986 .
22 ـ يمنى العيد : في معرفة النص ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ط3 ، 1985 .
23 ـ سالم يفوت : فلسفة العلم المعاصرة ومفهومها للواقع ، دار الطليعة ، بيروت ، ط 1 ، 1984 .
24 -Vladimir Propp : Morphologie du conte,édition point,paris,1973 ـ
25 ـ سمير المرزوقي وجميل شاكر : مدخل إلى نظرية القصة ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر والدار التونسية للنشر ، ط1 ، د ت .
26 ـ رولان بارث : النقد البنيوي للحكاية ، منشورات عويدات ، بيروت باريس ، ط1 ، 1988 .
27 ـ محمد القاضي : تحليل النص السردي ، دار الجنوب للنشر ، تونس ، 1997 .
28 ـ جيرار جينيت : خطاب الحكاية ، تر : محمد معتصم ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، 2004 .